قصة اللغة العربية -٣-

مجمع اللغة العربية بين الفصحى والعامية

بقلم احمد حسن الزيات

انشئ مجمع اللغة العربية بالقاهرة في الشهر الأخير من سنة ١٩٣٢ ، وكان في مصر حينئذ بقية من شيوخ الادب الذين فقهوا علوم الدين في الازهر وحذقوا فنون اللغة فيه وفي دار العلوم ، فكانوا بحكم ثقافتهم وطبيعة بيئتهم يعتقدون بحق ان اللغة التي اتخذها الله ترجماناً لوحيه ولغة لكتابه ومعجزة لرسوله ولساناً لدعوته هي من حقيقة الاسلام . فالمحافظة عليها محافظة عليه والتفريط فيها تفريط فيه . لذلك كانوا يؤثرون السماع ويتشددون في القواعد ويتقيدون بالمعاجم ويكفرون بالمولد والدخيل ، ويرون ان العربية هي لغة الاولين الذين انقضى عهدهم في آخر المائة الثانية بالامصار ، وفي آخر المائة الرابعة بالبوادي ، فلا يملك المولدون ان ينقصوا منها ولا ان يزيدوا فيها . ويقفون من الكتاب والصحفيين موقف المعلم المرشد او الناقد المنكر . ويرشدونهم الى الالفاظ العربية والاساليب الصحيحة ويصدونهم عن الكلمات الدخيلة والتراكيب الاعجمية . ويحاولون ان يضعوا لكل مصطلح من مصطلحات العلوم الحديثة ، ولكل اداة من ادوات الحضارة الغربية لفظاً عربياً بطريق القياس او المجاز او الاستعارة ، ولا يقبلون المولد والمعرب والدخيل الا في الضرورة الشديدة . ولقد دخل المجمع في عهده الاول طائفة من هؤلاء الفضلاء فذهبوا به هذا المذهب وصبغوه بهذه الصبغة وجروا في وضع المصطلحات العلمية والمسميات الحديثة ذلك المجرى . فصرفوا النظر عما اصطلح عليه الخاصة في التعليم والتأليف ، وعما تواضع عليه العامة في البيت والشارع والسوق والمعمل والحقل ووضعوا للهدروجين المائه وللاكسجين المحر وللترام الجماز وللتايفون الارزيز وللبنزين الصريم وللترمس الكظيمة وللريال او الدولار الرقين وللقرش النمية الى آخر هذه الالفاظ التي ظلت موضوعاً للتندر زمناً طويلا في الصحف والمجالس ثم ذهبت جفاء كما يذهب الزبد .

ثم مضى عهد المطهرين محموداً غير مذموم ومعذوراً غير ملوم ، لأن المطهرين في العربية كالبوريست في الفرنسية شيعة لغوية دعاهم حبهم للغتهم وتعصبهم لها الى ان يبالغوا في تنقيتها من العامية وتطهيرها من الدخيل ، فكان لهم اجر المؤمن وان اسرف ونصيب المجتهد وان اخطأ . وعذر اخواننا الذاهبين رضوان الله عليهم انهم كانوا ادباء ولغويين ونحويين ولم يكونوا كتاباً ولا مترجمين ولا صحفيين ممن يكتبون للجمهور ويتصلون بالعامة ويدفعون الى مزالق التعبير عن المعاني المستحدثة والاعيان المخترعة . ثم خلف من بعدهم خلف ، الكتاب والصحفيين فحاولوا ان يخرجوا المجمع من ء الزمان والمكان التي حصروا فيها حق الوضع والتعريب وان ينهوا الى ان بجانب الفصحى التي قيدها او جمدها لغة اخرى هي العامية التي سيطرت على حياة الامة العربية في شؤونها العامة واغراضها المختلفة لأنها هزة تنبو على القيد وطبيعة تنفر من الصنعة فهي تقبل من كل لسان وتستمد من كل لغة وتصوغ على كل قياس . وبذلك اتسعت دائرتها لكل ما استحدثته الحضارة من المفردات المولدة والمقتبسة في المنزل والحديقة والمتجر والورشة والغيط . والناس في سبيل التفاهم يؤثرون السهل ويستعملون الشائع ويتناولون التعريب وتخلف اللغة عن مسايرة الزمن وملاءمة الحياة معناه الجمود ، والنهاية المحتومة لجمود اللغة اندراسها بتغلب لهجاتها العامية وحلولها ومحلها ، اذ تكون بسبب مرونتها وتجددها ادق تصويراً لاحوال المجتمع واوفى اداء لأغراض الناس .

بدأت هذه المحاولة في الدورة الثالثة عشرة للمجمع سنتي ٤٦ — ١٩٤٧ اذ قدم احد الاعضاء الكتاب الى مجلس المجمع بحثاً في (موقف اللغة العامية من اللغة الفصحى) الم فيه بنشأة

اللغات العامية من امهاتها الفصحى او بين العوامل التي تؤدي الى ذلك وذكر كيف نشأت العامية العربية من فصحاها وما نالها من تغير في الالفاظ وفي الاساليب ثم انتهى الى استخلاص هذه الامور :

الأمر الأول : ان اكثر الالفاظ العامية عربية اصابها التحريف في النطق للتخفيف والتيسير .

والامر الثاني : ان اسلوب العامية قد استقر على صورة تعودها الناس وهو يختلف عن الاسلوب العربي الفصيح

والأمر الثالث : أن العامية لا تزال تتطور وهذا التطور ناشيء من حياة الناس فهي وليدة الحياة نفسها وفيها من المرونة ما في الكائن الحي .

والأمر الرابع : انها لا تصلح إلا للتعبير الأدبي الساذج. فاذا أردت أن تعبر عن المعاني الدقيقة الرفيعة حاولت الاقتراب من الفصحى .

والأمر الخامس : ان العامية ليست مسخاً مجرداً للفصحى وانما هي لغة قائمة بذاتها لها قواعدها وأصولها . فاذا شذ عنها شاذ فكأنما خرج عن طريقة مقررة . ثم دعا الباحث الى التقريب بين اللغتين فألقى على المجلس هذه الأسئلة :

كيف يمكن التغلب على الصعوبة الكبرى وهي الإعراب وعلى الأخص في أواخر الكلمات ؟

ألا يجوز أن تقبل في الفصحى غير ما يصح في لغة قريش؟

هل نجعل الأصل مع ما لم يستعمل في الفصحى من قبل أم نجعله إجازة كل استعمال ما دام قائماً في الحياة ؟

ألا يمكن أن نتجرد من التعصب لأساليب القدماء في الكتابة والكلام إذا كانت لا تعبر حقاً عن إحساسنا وتفكيرنا؟ اننا لو فعلنا ذلك لسهل علينا تطوير الفصحى حتى تقترب من العامية دون أن يصيبها ضرر من ذلك .

سمع مجلس المجمع هذا البحث ثم أحاله إلى لجنة من أعضائه فدرسته وناقشته ثم فصلت رأيها في تقرير قدمته إلى مؤتمر المجمع في دورته التالية استنكرت فيه أن يكون للأمة لغتان : لغة للحديث والإبانة عن مطالب الحياة وأخرى للكتابة أو التعبير عن مشاعر النفس . فان الفرق الذي بين لغة العيش ، ولغة الفكر اذا زاد ، قسم الأمة إلى قسمين : قلة متعلمة تتأثر بالفكر السامي والفن الرفيع ، وكثرة جاهلة لا تستطيع أن تتعدى حدود العامية الشائعة في الحياة والمعاملات.

ومحال أن تستقر حياتنا الحديثة على هذا الانقسام ، فان أقطاب الفكر والعلم ونوابغ الأدب والفن لا يتحقق النفع منهم للأمة إلا إذا بلغت رسالاتهم إلى الخاصة والعامة على السواء . فمن الخير الذي لا بد منه أن يرفع الحاجز الذي يحول بين القلة الشاعرة المفكرة والكثرة العاملة المنتجة . والعالم العربي كله لسان واحد على حفظ الفصحى من العبث ومدها بالعوامل المجددة والوسائل الميسرة لتكون رابطة فكرية وصلة وجدانية بين طبقات الشعوب التي تتكلم بها .

وأقرب الطرق إلى ذلك أن اللفظ الدائر على ألسنة الناس إذا كان عربياً صحيحاً كان أولى بالاستعمال بغض النظر عن صيانته وابتذاله . فاذا كان عربياً غير صحيح أبقيناه ورددناه إلى الفصاحة . وذلك يستلزم دراسة العامية في جميع الأقطار العربية دراسة شاملة لنستطيع أن نعرف المشترك من الألفاظ والمختص . فالمختص نتركه لأهله والمشترك نستعمله في الفصحى ونفضله على غيره من مهجور المعاجم ، فان اشتراكه في جميع اللهجات العامية دليل على إصالة في العروبة والمعاجم لم تستوعب المادة اللغوية كلها .

أصغى مؤتمر المجمع لهذا البحث ودار النقاش فيه ، والتعقيب عليه ، فأيده من أيده ، وفنده من فنده ، ثم خرج منه على ان التزمت في الفصحى يضر والتسامح مع العامية يفيد على شرط أن تظل الأصول مرعية والقواعد سليمة .

وفي الدورة السابعة عشرة للمجمع ألقيت في المؤتمر بحثاً في (الوضع اللغوي وحق المحدثين فيه) ذكرت فيما ذكرت به أن اذكار الوضع على المحدثين حرم الفصحى كل ماوضعه المولدون من الألفاظ وما اقتبسوه من الكلمات وما ألفوه من الحكايات ونظموه من الأغاني وأرسلوه من الأمثال ولو أن اللغويين قبلوا تلك الألفاظ والأدباء دونوا ذلك الأدب لوفروا للغة الفصحى وللادب العالي مورداً لا ينضب ومادة لا تنفد . ولو انهم ازالوا السد الذي جعلوه بين اللغتين ، لاكتسبت الفصحى من العامية السعة والمرونة والجدة ، واكتسبت العامية من الفصحى السلامة والصيانة والسمو ، ولكان لنا من تداخل اللغتين وتفاعلهما لغة تجمع بين محاسن هذه ومحاسن تلك . فاما مساوئ الفصحى او عجميتها فتموت كما يموت الحوشي المهجور في كل لغة . واما مساوئ العامية او خثالتها فتبقى على الالسنة التي تستذيقها من الطبقات الدنيا وتكون

هي اللغة العامية التي لابد منها في كل لغة من لغات العالم ، ولكن بالنسبة القليلة التي تطغيها على الفصحى ولا تفرضها على الناس . ثم اقترحت لتقريب الخلاف بين العامية والفصحى أن يفتح باب الوضع للمحدثين على مصراعيه بوسائله المعروفة وهي الارتجال والاشتقاق والتجوز ، وان نرد الاعتبار الى المولد ليرتفع الى مستوى الكلمات القديمة وان يطلق القياس في الفصحى ليشمل ما قاسه العرب ومالم يقيسوه ، وان يطلق السماع من قيود الزمان والمكان ليشمل ما نسمع من طوائف المجتمع كالحدادين والنجارين والبنائين وغيرهم من كل ذي حرفة .

وقد اقر المؤتمر هذه المقترحات واخذ المجمع يطبقها فيما يضع من مصطلحات العلوم والفنون ، وفيما يسجل من الفاظ الحضارة الحديثة والحياة العامة ، فهو في الغالب لا يضع المصطلحات ولا الكلمات كما كان يضع في عهده الاول ، وانما يسجل ما تواضع عليه العلماء في التعليم والتأليف ، وما اصطلح عليه العامة في التعامل والعمل بعد ان يجربه على منطق اللغة ويطبعه على ذوق اللسان ، فقبل الاكسجين والهدروجين والترام والتليفون والتلغراف والبطانية والطاقية والبنطلون والكبة والولاعة والساعة والترمس والبنزين والدخان والحشيش وآلافاً من مثل هذه الكلمات التي وضعها اولو الحرف والمهن والمضطربون في الحياة العملية اليومية من اهل السوق والمصنع والورشة والحقل . ولا حيلة فيما نشأ فيها من الدخيل ، فان الفاظ الحضارة انما ترد الينا من خارج البلاد العربية. والناس متى رأوا الشيء سموه ، والمسمون في الغالب من سواد الامة الذين لا يبالون ان ينطقوا على اي صورة ما داموا يقضون حاجتهم من التفهم والافهام . ويجيء بعد ذلك الصحفيون والكتاب فيجدون اللفظ قد شاع فاذا وجدوه سهلا في النطق سائغاً في الذوق استعملوه والا اهملوه او بدلوه . فالفصحى والعامية تتنافسان في الوضع والنقل والتعريب لا تهادن احداهما الا خرى . فايتهما سبقت الى الشيء الجديد يوم يرد الميناء سمته وفرضت تسميته على الالسنة فالتنكس مثلا ادركها الصحفيون وهي لا تزال في الميادين الحربية الاوروبية فنقلوا لها لفظاً عربياً قديماً هو الدبابة واذاعوه في البرقيات والاخبار حتى عرفه كل قارئ وردده كل سامع . فلما رآها الناس بعد ذلك في مصر لم ينكروا الاسم ولا المسمى .

وأما الاتوموبيل فقد ورد البلاد العربية قبل ان يسمع له الناس اسماً عربياً من قبل فنطقوا اللفظ الاجنبي بلغات عشر ، كما كان ينطق العرب القدماء لفظ اصبح . ووضع الكتاب له بعد ذلك لفظ السيارة وحاولوا ان يعمموه فما استطاعوا وظلت الكلمتان دائرتين في لغة الناس : العربية للكتابة والاعجمية للكلام . وهيهات ان تسلم احداهما للاخرى . ومثل ذلك يقال فيما وضعه مجمع اللغة في عهده الاول كالجمازة للجرس ، والدراعة للبلوزة ، والمنطق للجونلة والمدرعة للجاكتة والسراويل للبنطلون ، فان هذه الكلمات على عربيتها وانطباقها على المسميات الاوربية بنوع من التخريج لم تستطع ان تسير على الافواه ولا ان تجري على الأقلام لانها وضعت بعد ان فشت الالفاظ الاجنبية في الناس ومكن لها الزمن في الالسنة وسوغها التكرار في الاسماع .

فالمسألة اذن مسألة سباق بين الفصحى والعامية . من تسبق منهما الى المعنى الجديد او المخترع سمته وفرضته على الاخرى كما قلت ، ولكن ألسنة الفصحى اقل ووسائلها في النشر اضعف فتغلبها على العامية ابعد مما نظن . فلم يكن بد من قبول الشائع السائغ مما تضعه العامة على مافيه من شائبة العجمة او مخالفة القياس او تغير المدلول : لأن اللفظ متى شاع في معنى او ذات صعب محوه من الكلام وطرده من اللغة . واذا وضعنا بجانبه لفظاً آخر من العربي الفصيح وضعناه ميتاً لأن ثلاثة ارباع الشعب لن يستعملوه والقليل الباقي من اكثر الناس ان يقبلوه . واذا قبلوه واستعملوه اتسع الخلاف بين لغة القلم ولغة اللسان ، وانقطعت الصلة بين اذهان الخاصة واذهان العامة . على ان عمل المجمع المصري للتقريب بين اللغتين ناقص من وجه . ذلك اننا نعتمد في الفاظ الحضارة الحديثة والحياة العامة على اللغة المصرية وحدها وهي كثيراً ما تختلف عن لغات الاقطار العربية الاخرى . فالتموين والتعمير والترقية والاذاعة والتليفون والتلغراف في مصر يقابلها الاعاشة والأعمار والترفيع والبث والهاتف والبرق في العراق . والإلفاظ الدخيلة في عامية مصر اكثرها من الفرنسية والايطالية ومعظمها من الكردية والتركية والفارسية والاوربية ، فقبول المسموع الشائع من هذه اللغات جميعها يوقعنا في الترادف والبلبلة . والطب لهذه العلة لاتملكه الا المجامع اللغوية مجتمعة . ومنهاج العمل الذي اقترحه مبني على اقتراحات ثلاثة :

الاول : ان تتألف في المجمعين السوري والعراقي لجنة لالفاظ الحضارة الحديثة والحياة العامة على مثال اللجنة المؤلفة لذلك في مجمع اللغة العربية .

والثاني : ان يكتسب مؤتمر المجامع اللغوية صفة الدوام والنظام فيجتمع كل سنة لتنسيق الجهود وتوحيد المصطلحات وتبادل وجهات النظر .

والثالث : ان يقوم كل مجمع في بلده بتعبئة قواه او اكثرها لجمع الالفاظ الحضارية : الموضوعة والمسموعة والمنقولة ، ويكلف محرريه ان يصنعوا ما كان يصنعه رواة اللغة الاولون من خروجهم الى البوادي ومشافهتهم للاعراب والاخذ عنهم. فيخرج المحررون الى المتاجر والمصانع والمزارع فيسألون كل ذي سلعة وكل ذي صنعة وكل ذي آلة عن اسمها العام واسم كل جزء من اجزائها وكل نوع من انواعها ثم يدونون كل ذلك باوصافه وصوره ويقدمونه الى اللجان المختصة فتصنفه وتغربله وتعرفه . ثم تتبادل المجامع الثلاثة هذه الالفاظ فتقرر قبول العام منها ثم تحرر بالخاص قوائم تثبت ما يقول كل قطر في كل مسمى لتعرض على مؤتمر المجامع اللغوية حين تجتمع فينظر فيها ويوازن بينها ثم يختار منها او يصرف النظر عنها .

اما منهاج العمل في لجنة الفاظ الحضارة الحديثة والحياة العامة التي الفها مجمع القاهرة فهو تتبع ما وضعه الناس في حياتهم الاجتماعية ، وما اقتبسوه في معاملاتهم اليومية من الفاظ لم يضعها الاولون فتجمعها ثم تحققها ثم تعرفها ثم تعرضها على مجلس المجمع ، فاما ان يسجلها كما هي ان بلغت من الشيوع مبلغ الاجماع ، واما ان يؤجلها اذا كان استعمالها لا يزال محصوراً في بلد او مقصوراً على طائفة . فاذا تألف في المجمعين الآخرين مثل هذه اللجنة كما اقترحت واقر اعمال هذه اللجان الثلاث هذا المؤتمر ، رجونا ان يجتمع لدينا في زمن قريب محصول وافر من الالفاظ الحديثة المشتركة تصل ما بين اللغة والحياة ، وتقرب ما بين الفصحى والعامية . وفقنا الله جميعاً لخدمة امتنا عن طريق الوحدة اللغوية والثقافية لنعود امة التوحيد كما كانت متحدة في العقيدة والقبلة والكلمة والسياسة ، انه سميع قريب .

أحمد حسن الزيات

روائع المسرح العالمي

سلسلة كتب تنتظم اروع المسرحيات العالمية وأشهرها

وتتناول من القضايا ما يهم كل مثقف عربي

(يشرف على ترجمتها الدكتور سهيل ادريس)

صدر منها

١ . الايدي القذرة (نفدت)	تأليف	جان بول سارتر
٢ . بستان الكرز	«	انطون تشيخوف
٣ . الحقيقة ماتت	«	عمانوئل روبلس
٤ . كانديدا	«	برنارد شو
٥ . الافواه اللامجدية	«	سيمون دوبوفوار
٦ . البلور المحرق	«	تشارلز مورغان
٧ . ثمن الحرية	«	عمانوئيل روبلس
٨ . العادلون	«	البير كامو
٩ . موتى بلا قبور	«	جان بول سارتر

قريباً

١٠ . رؤوس الآخرين	«	مارسيل ايميه

تطلب هذه السلسلة من

دار العلم للملايين

ودار الآداب - بيروت